الزهد والموعظة فى شعر الامام الشافعى

رضى الله تعالى عنه

بقلم دكتور
تمساح على أحمد نحيلة
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

فى ظل القيم الإسلامية والهداية الربانية نشأ هذا العالم الجليل وتأدب بآداب الإسلام ، وتجرع عن حياضه العذبة وروحانيته الشفافة ، فملك مته النواصى ، وظل يميس فى بروده الجميلة وأرديته الرائعة طيلة حياته .

والإمام الشافعى هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن النضر نزار بن معد بن أد بن أدد(١) .

ويلتقى نسبه مع رسول الله ﷺ فى عبد المطلب ، فهو من هاشم عم رسول الله صلوات الله وتسليماته عليه .

---

(١) ديوان الإمام الشافعى ١٢

حياة الإمام رضى الله عنه :

فقد ولد رضى الله عنه بغزة ـ فيما جاء عنه ـ سنة خمسين ومائة للهجرة يوم وفاة أبي حنيفة[١] ، فقال الناس مات إمام وولد إمام ، وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين ، وقال وكانت أمى من الأزد[٢].

ونشأ الإمام الشافعى بمكة ، وكتب العلم بها وبمدينة الرسول ـ ﷺ ـ وقدم بغداد مرتين ، وحدث بها وخرج إلى مصر فنزلها إلى حين وفاته ، وكان سمع من الإمام مالك بن أنس ، وابراهيم بن سعد ، وشعبان بن عيينه ، وداود ابن عبد الرحمن ، وعبد العزيز بن محمد الدراوردى ، ومسلم بن خالد الزنجى ، وابراهيم بن أبي يحيى ، وعبد الرحمن بن أبي بكر المليكى ، وعبد الله بن المؤمل المخزومى وغيرهم[١].

وقد سعدت مصر بقدوم الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ وكان له أثره الواضح فى نفوس مريديه ، وطلاب العلم الذين كانوا يختلفون على مجلسه ، وينهلون من فيض علمه وزهده وأدبه ، فلقد وفد محمد بن إدريس على مصر من مكة المكرمة ومعه إبنه أبو عثمان محمد ومعه كذلك زوجه حميده حفيدة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ـ ثم بفتاه زينب وفاطمة ، وذلك للإفادة الدائمة بها وليواصل موكب الحياة العلمية والعملية فيها ، وكان فى ركبه تلميذه أبو بكر الحميدى ، وقد تصادف دخوله الفسطاط دخول نائب وإلى مصر الجديد الأمير العباسى عبد الله بن عباس بن موسى ، وقد نزل

---

(١) معجم الادباء ٢٨٢/٠٧

(٢) راجع الديوان ١٤

(٣) راجع تاريخ بغداد ٥٦

الإمام على أحواله من الأزد ، وأخذ يتردد على جامع الفسطاط للصلاة ولحضور حلقات العلم وسرعان ما انتشر ذكره واتسعت حلقات العلم فى هذا المسجد اتساعاً كبيراً حيث أخذ الشافعى يلقى محاضراته فى الفقه وأصوله وفى التفسير والحديث وفى اللغة والأدب على الطلاب[١] ، والشافعى - يرحمه الله - من الأئمة العاملين المجتهدين الذين ذاع ذكرهم وامتلأت الدنيا بعلمهم وفضلهم ، فقد حفظه الله برعايته وعنايته ، فيروى أن نصر بن المكى قال : سمعت ابن عبد الحكم يقول : « لما أن حملت أم الشافعى به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع فى كل بلد فيه شظيه ، فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر ، ثم يتفرق فى سائر البلدان »[٢].

ومما يروى عن الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ فيما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال « اللهم أهد قرشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً ، اللهم كما أذقتهم عذاباً فأذقهم نوالا ، دعاها ثلاث مرات[٣].

وقال الإمام الشافعى : قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت « الموطأ » فقال : أحضر من يقرأ لك ، فقلت : أنا قارىء ، فقرأت عليه الموطأ حفظا ، فقال : لعل بك أحد يفلح فهذا الغلام ،

وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شىء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعى فقال : سلوا هذا الغلام[٤].

وكان رحمه الله يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث

---

(١) راجع الديوان ١٤ ، ١٥

(٢) ، (٣) تاريخ بغداد ص ٥٩ ، ٦١ على الترتيب

(٤) وفيات الاعيان ٤/١٦٥

قويت حجته ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه وكان يناظر سرج الغول الشاعر الأديب فى الأدب والشعر والنقد ، وكان لسرج حلقه أدبية كبيرة فى الجامع العتيق[١].

وعن علم الشافعى أنشد على بن محمد الجرجانى لبعضهم فيه[٢]:

مثل الشافعى فى العلماء مثل البدر فى نجوم السماء
قل لمن قاسه بنعمان جهلا أيقاس الضياء بالظلماء

وقد ظل الإمام الشافعى طيلة حياته يقوم على خدمة العلم ، وينثر على على تلاميذه روائع الحكمة والموعظة إلى أن فارق الحياة وفاضت روحه الطاهرة إلى خالقها فى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ودفن بعد للعصر من يومه بالقرافة الصغرى ، وقبره يزار بها بالقرب من المقطم[٣] بمصر رضى الله عنه ـ بعد حياة حافلة بالعلم والمعرفة ،

ومما هو جدير بالذكر أن الإمام الشافعى تزوج فى آخريات حياته أم ولده « دنانير » بعد وفاة زوجته « حميدة » وأنجب من دنانير ابنه « أبا الحسن » عام ٢٠٢ هـ وقد خصص له مرضعة أندلسية اسمها « فوز » وبذلك كان له ولدان أبو عثمان محمد وأبو الحسن وبنتان هما زينب وفاطمة وهؤلاء الذين مات عنهم الامام الجليل[٤] .

وقد ترك لنا فيضا من العلم فى كتبه التى ألفها والتى كان يمليها على تلاميذه فى رحلاته من مكة إلى بغداد كـكتاب « الحجة » وما أملاه على تلاميذه فى

---

(١) الديوان ١٦ (٢) تاريخ بغداد ٣ / ٦٩
(٣) وفيات الأعيان ١٤/١٦٥ (٤) الديوان : ١٩

مصر من أهمها « الرسالة » و « الأم » و « أحكام القرآن » و « جماع العلم » و « القياس » و « مسند الإمام الشافعي » فضلا عن آثاره الأدبية ، ففي جامع عمرو بن العاصي كان يجالس العلماء والأدباء والنقاد والشعراء ورجال البلاغة والبيان ، وديوانه الشعري الذي بين أيدينا فيه ما يدل على المدى الأدبي الذي وصل إليه عالم تلك الأمة وحبرها الجليل الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه.

وحينما فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ناحت الدنيا بمن فيها لفقد هذا الفاضل والأديب الزاهد ، فقال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي عن قصيدة يرثي بها أبا عبد الله الشافعي[1]:

ألم تر آثار ابن إدريس بعده ... دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد ... وتنخفض الأعلام وهي فوارع
مناهج فيها للهدى متصرف ... موارد فيها للرشاد شرائع
ظواهرها حكم ومستنبطاتها ... لما حكم التفريق فيه جوامع
لرأي ابن إدريس بن عم محمد ... ضياء إذا أظلم الخطب ساطع
إذا ما المعضلات المشكلات تشابها ... سما منه بور في رياض لامع
أبى الله إلا رفعه وعلوه ... وليس لما يعليه ذو العرش واضع
توخى الهدى فاستنقذته يد التقى ... من الزيغ إن الزيغ للمرء صارع
ولاذ بآثار الرسول فحكمة ... لحكم رسول الله في الخلق تابع
رعول في أحكامه وقضائه ... على ما قضى في الوحي والحق ناصع
بطيء عن الرأي المخوف التباسه ... إليه إذا لم يحسن لبسا مسارع
جرت ابحور العلم أمداد فكره ... لها مدد في المالئين يتابع

---

(١) تاريخ بغداد ٢ - ٧١

وأنشأ له منشية من خير معدن ... خلائق من الباهرات البوارع
تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً ... وخص بلب الكهل مذهو يافع
وهذب حتى لم تشر بفضيلة ... إذا التمست إلا إليه إلاصابع
فمن يك علم الشافعي إمامه ... فمرتعه فى باحه العلم واسع
سلام على قبر تضمن جسمه ... وجادت عليه المدجنات الهوامع

من قصيدة أخرى لابن دريد أيضاً يقول فى حق الإمام الشافعي[1] :

وإذا قرأت كلامه قدرته ... سحبان أو يوفى على سحبان
لو كان شاهده معد خاطباً ... وذوو الفصاحة من بنى قحطان
لأقر كل خاضعين بأنه ... أولاهم بفصاحة وبيان
هادى الأنام من الضلالة والعمى ... ومجيرها من حاجم النيران
رب العلوم إذا أجال قداحه ... لم يختلف فى فوزهن اثنان
ذو فطنة فى المشكلات وخاطر ... أمضى وأنفذ من شياة سنان
وإذا تفكر عالم فى كتبه ... يبغى التقى وشرائط الإيمان
متبنياً للدين غير مقلد ... يسمو بهمته إلى الرضوان
أضحت وجوه الحق فى صفحاتها ... ترمى إليه بواضح البرهان
من حجة ضمن الوفاء بنصرها ... نص للرسول ومحكم القرآن
ودلالة تجلو مطامع سيرها ... غر القرائح من ذوى الأذهان
حتى ترى متبصراً فى دينه ... مغلول غرب الشك بالإيقان

---

(١) تاريخ بغداد ٢ - ٧٣

فرحم الله الإمام الشافعي وجزاه خيراً عن الأمة الإسلامية بما قدم لها من بيان وتوضيح لشريعة الله وسنته في خلقه .

شاعرية الإمام الشافعي :

كان إمامنا ـ رحمه الله ـ صاحب ذوق رفيع ، وحس مرهف ، ومشاعر فياضة ، ولفرط إيمانه وتقواه وانشغاله بما هو أنفع له لم يعط للشعر الإهتمام الكبير على الرغم من فطنته وموهبته الشعرية ، فكان الاهتمام بالنسبة له منصباً على مسائل الشريعة والأحكام الدينية :

لذلك نرى ما أثر عنه من شعر يذكر فيه أحوال الناس ويوم القيامة والتزود من هذه الدنيا الغرورة ليوم الحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ثم يتحدث عن الزهد والتقوى والموعظة في جل أشعاره وهي جميعها عبارة عن ، مقطوعات ، قصيرة من الشعر ومع هذا لم يترك لنفسه العنان في مجال الشعر ، لأنه لا يتناسب مع وضعه الديني ولذلك نراه يقول (١) :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وشعر الزهد في آثاره الأدبية يمتزج مع الموعظة والحكمة التي تصدر عن عقل صقلته التجارب وعلم بمواطن الأمور ، فعرف أن الدنيا بما عليها من متاع مصيره الزوال والهلاك والخسران ، فهو لهذا المعنى يحذر الناس من

---

(١) وأبيات الأعيان ٤ - ١٦٧

شهواتها وملذاتها ويحث على التوبة والرجوع إلى الله امتثالا لقول العلي القدير :

« ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون »[1] ، ويقول النبي الأعظم :

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[2] .

في ظل هذا الهدى العظيم أخذ الإمام الشافعي - رضي الله عنه - يغط في الناس ما تمليه عليه نفسه من معالم الروحانية ، ويحاول أن يخلص الأرواح من تلك المظاهر الخادعة والتي لا عاقبة لها إلا الدمار والبوار والخسران المبين ، فيدعو النفس إلى الجهاد والعمل على الطاقة والامتثال لأوامر الله تعالى وترك البريق الخادع لمظاهر الحياة .

وكان للامام الشافعي منزلة كبيرة في الشعر وروايته ، بدأت صلته فيه منذ شبابه ومازال يجول فيه - حتى بعد أن انصرف إلى فقهه - وصار في مكنته أن يرتجل في المعنى الذي يريده بيتاً أو بيتين أو أبياتاً ، وفي البداية جمع شعر الهذليين وبخاصة كل شعر كان جاهليا واسلاميا فصيحا تناولوا فيه الحماسة والفضائل والحكمة ، ولعل الشافعي أعجب بشعر هؤلاء لنشأته في قبائلهم ورضاه عن طباعهم ويقول الشافعي في حديثه عن مبدأ أمره : « خرجت من مكة فلزمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت من أفصح العرب » .

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف

(٢) صحيح مسلم : ٤ - ٢١١٢

وحدث الصولى عن المبرد أنه قال : كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس وقال ابن رشيق : أما محمد ابن إدريس الشافعى فكان من أحسن الناس اقتنانا فى الشعر (١) .

ولغوته الشعرية كان رضى الله عنه يفهم أبعاد الشعر ويجيب عن الأسئلة التى توجه اليه بالشعر ، ومما يروى عنه أن أمراة جاءت إليه فألقت رقعة فيها :

عفا الله عبداً أعان بدعوة خليلين كانا دائمين على الود
إلى أن مشى واشى الهوى بنميمة إلى ذاك من هذا فزالا عن العهد

فبكى رحمه الله ـ وقال : ليس هنا يوم نظر ، هذا يوم دعاء ، ولم يزل يقول : اللهم اللهم حتى تفرق أصحابه .

وفى معرض آخر أن رجلا جاءه برقعة فيها :

سل المفتى المكى من آل هاشم إذا اشتد وجدا مرىء كيف يصنع ؟

فكتب إليه الشافعى :

يداوى هواه ثم يكتم وجده ويصبر فى كل الأمور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب تحت هذا البيت الذى هو الجواب :

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى وفى كل يوم غصة يتجرع

---

(١) راجع الديوان ، ٢ ، ٢٢ .

فكتب الشافعي رحمه الله :

فإن هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شيء سوى الموت أنفع [١]

وحدث الربيع بن سليمان قال : كنا عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فنظر فيها وتبسم ، ثم كتب فيها ودفعها إليه . قال : فقلنا : يسأل الشافعي عن مسألة لا ننظر فيها وفي جوابها ؟ فلحقنا الرجل وأخذنا الرقعة فقرأناها وإذا فيها :

سل المفتي المكي هل في تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

وإذا أجابته أسفل من ذلك :

أقول معاذ الله أن يذهب الفتى تلاصق أكباد بهن جراح [٢]

وهكذا ينهال الجواب في مضامين أشعار الإمام الشافعي ، وما ذاك إلا من موهبته الشعرية ومقدرته على الانتقال في الاتجاهات الشعرية بكافة صورها ورسومها .

نصوص من شعر الموعظة والزهد للامام الشافعي :

يقول الإمام الجليل في العظة [٣] :

---

(١) راجع معجم الأدباء ١٧/٣٠٦ لياقوت . إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) المصدر السابق ١٧/٣٠٥ .

(٣) الديوان ٢٦ .

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالى ... فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلداً ... وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيونك فى البرايا ... وسرك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب ... يغطيه - كما قيل - السخاء
ولا تسر للأعادى قط ذلا ... فإن شماتة الأعدا بلاء
ولا ترج السماحة من بخيل ... فما فى النار للظمأن ماء
ورزقك ليس ينقصه التأنى ... وليس يزيد فى الرزق العناء
ولا حزن يدوم ولا سرور ... ولا بؤس عليك ولا رخاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعه ولكن ... إذا نزل القضا ضاق الفضاء (١)
دع الأيام تغدر كل حين ... فما يغنى عن الموت الدواء

تلاحظ فى هذه القصيدة النظر البعيد لنفس مؤمنة تمكن الإيمان من أركانها فجالت بين ثنايا هذا النص الأدنى وهى تنظر فى الدنيا ومآلها، وما تزدان به من ألوان خادعة وأضواء كاذبة تنصب شراك الصيد وتمد حبائل الدهاء والمكر دون كلل أو ملل وكأنها جاعلة هذا الإتجاه هدفا لها لا تحيد عنه بحال من الأحوال.

وشاعرنا الجليل ساق فى قصيدته ألواناً عدة من الزجر والنصيحة

---

(١) وفى رواية : حم القضاء .

وإتخاذ الحيطة من الدنيا وما فيها من بريق كاذب ، فيأمر الإنسان المؤمن أن يترك الدنيا تفعل ما تشاء ، فكل ما تأتى به الأيام مقدر وقضى به المولى تبارك وتعالى ، وإذا حلت بك أيها الإنسان مصيبة فكن رجلا قويا على تحمل الشدائد ونوائب الدهر ويسوق هذه النصيحة فى صورة الامر بأن لا يقابل الإنسان العداء بالعداء والسيئة بالسيئة أخذا من التوجيه الإلهى « إن الحسنات يذهبن السيئات » والإرشاد المحمدى : اعف عمن ظلمك واعط من حرمك »

ويقرر الاستاذ الجليل هذا المعنى المقرر لدى البخلاء الذين لا يرجى منهم شىء :

ولا ترج السماحة من بخيل فما فى النار للظمأن ماء
ورزقك ليس ينقصه التأنى وليس يزيد فى الرزق العناء

فما عليك أيها الإنسان إلا السعى الحسن فكل ما قدر لك سوف يحدث وعلى الإنسان أن يتأسى بقول المصطفى - ﷺ - « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الامور تجرى بمقادير » .

والدنيا لا شىء فيها مستقر على حال فهى دائماً متلونة ومتغيرة الحزن يعقبه السرور والبؤس يأتى بعده الرخاء والقانع من يرضى بما قسم الرحمن وبهذا يكون سعيداً فى كل أحواله الدنيوية لانه يكون متيقنا أن أمر الله لامرد له ، فاذا أراد أمراً فانما يقول له كن فيكون » .

ثم يختم هذه القصيدة بالحكمة البليغة التى جاءت فى هـــذا البيت :

دع الأيام تغدر كل حين فما يغنى عن الموت الدواء

وبهذا يكون الإنسان مستريح الفكر خالى البال من الهموم والأحزان فما أجملها من موعظة فى شعر ملىء بالزهد والتقوى تصدر من نفس مؤمنة متصوفة.

ويقول رضى الله عنه (١):

إن كنت تغدو فى الذنوب جليداً وتخاف فى يوم المعاد وعيداً
فلقد أتاك من المهيمن عفوه وأفاض من نعم عليك مزيداً
لا تيأسن من لطف ربك فى الحشا فى بطن أمك مضغة ووليداً
لو شاء أن تصلى جهنم خالداً فما كان ألهم قلبك التوحيدا

فهذه المقطوعة من الشعر تعد صيحة فى مجال التوبة والرجوع إلى حظيرة الإيمان ودعوة للعصاة المذنبين الذين اثقلت كاهلهم الذنوب وظنوا أن طريق العفو والسماحة قد أغلق فى وجوههم، فالإمام يرحمه الله - يهيب بالمذنبين ويوضح لهم ما غاب عن عقولهم من عفو عظيم ولطف كبير تفضل به المولى على عباده يوم أن كانوا فى بطون أمهاتهم لا يسمعون ولا يعلمون وذلك أخذاً من كلام رب العباد:

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فالمؤمن لا يقنط من رحمة الله ولكن عليه أن يبادر إلى التوبة والخضوع لعالم الغيب والشهادة لقوله تعالى: « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ».

---

(١) الديوان: ٥٣

فهذا نداء من القلب لتفوس مؤمنة موحدة خانها التوفيق فاقترفت بعضا من الإثم ولجأت إلى طريق المعصية والهتان فبين لها أن ساحة الفضل أوسع وأشمل ولا تقف عند حد ، ويطلب منهم العودة وطلب الصفح والمغفرة من رب الأنام .

ومن شعره الصوفى - رضى الله عنه - قوله :

قلبى يرحمتك اللهم ذو أنس ... فى السر والجهر والاصباح والغلس[1]

وما تقلبت من نومى وفى سنتى ... الا وذكرك بين النفس والنفس

لقد منننت على قلبى بمعرفة ... بأنك الله ذو الالاء والقدس

وقد أتيت ذنوبا أنت تعلمها ... ولم تكن فأضحى فيها بفعل مس

فامنن على بذكر الصالحين ولا ... تجعل على إذا فى الدين من لبس

وكن معى طول دنياى وآخرتى ... ويوم حشرى بما أنزلت فى عبس

فهو مؤتنس بذكر الله ومن كان مع الله كان الله معه فى كلتا حالتيه فى السر والجهر فلم يفارقه ذكر الله لحظة حتى فى نومه حينما يتقلب على مضجعه بذكر المولى لأنه يعيش فى نوره ومنته ، ومع ذلك يطلب من ربه العفو والرضوان والمغفرة لما قدمت يداه

ويقول فى التوكل على الله القدير :[2]

توكلت فى رزقى على الله خالقى ... وأيقنت أن الله لاشك رازقى

---

(١) الغلس : الظلمة

(٢) الديوان ٨٤

وما بك من رزق فليس يفوتنى ولو كان فى قاع البحار الغوامق (١)
سيأتى به الله العظيم بفضله ولو لم يكن منى اللسان بناطق
ففى أى شىء تذهب النفس حزة وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

فهو واثق من أن الله معه . لأنه يتوكل عليه لا على سواه وما دام الأمر كذلك فالله لن ينساه ورسول الانسانية — صلوات الله وتسليماته عليه — يقول :

« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

فالله خالق للخلق وصانع لهذا الكون ، وهو المسيطر والمهيمن على ما فيه فلا جزع ولا حزن ولا ألم فما كتب لك حتما لا يفارقك إطلاقا .

ويقول إمامنا الزاهد — رضى الله عنه — :(٢)

خف الله وارجه لكل عظيمة ولا تطع النفس اللجوم فتندما
وكن بين هاتين من الخوف والرجا وابشر بعفو الله إن كنت مسلما
ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو من الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

---

(١) الغوامق : العميقة .
(٢) الديوان ٩٧

فلولاك لم يصمد لإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما
فيا ليت شعرى هل أصير لجنة ... أهنا وإما للسعير فأندما
فلله در العارف الندب إنه ... تفيض لفرط الوجد أجفانه دما
يقيم إذا ما الليل مد ظلامه ... على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحا إذا ما كان فى ذكر ربه ... وفى ما سواه فى الورى كان أعجما
ويذكر أياماً مضت من شبابه ... وما كان فيها بالجهالة أجرما
فصار قرين الهم طول نهاره ... أخا السهد والنجوى إذا الليل أظلما
يقول حبيبى أنت سؤلى وبغيتى ... كفى بك للراجين سؤلا ومغنما
ألست الذى عذبتنى وهديتنى ... ولا زلت منانا على ومنعما
عسى من له الإحسان يغفر زلتى ... ويستر أوزارى وما قد تقدما

ففى هذا النص الشعرى نحس بتلهف النفس المتصوفة وهى خاضعة لله لا لسواه تلح فى طلب العفو والقبول من عند الله تعالى .

وبالنظر الدقيق لأسرار هذه القصيدة يستبين لنا الأمر وتتضح الأشياء فى تلك الذروة البلاغية « إليك ، يا الله وفى تقديم هذا اللفظ إشعار بالحاجة إليه وإظهار الضعف بين يديه وذلك أدعى للقبول والرضا من الله تعالى وأيضا فى هذا التعبير « أرفع » ليتناسب مع مقام الألوهية .

وما أجمل هذا التعبير الذى هو صادر من قلب إنسان لم تجد الدنيا فى نفسه شيئا ولم يعبأ بمظاهرها الخادعة الكاذبة فيقول فى وصف إشياته لمولاه وشدة خوفه من بارىء الأرض والسماء « تفيض لفرط الوجد أجفانه دما »

والنجوى : بث الأخبار الخفية سرا .

فرحم الله الشافعي الذي بث فينا تلك العبارات القوية التي تصور لنا ما وصل إليه من يقين وإيمان .

وإذا نظرنا في بقية أبيات القيدة تأخذنا الدهشة ونعيش معها حيارى ، وذلك لما ذكره العالم العامل الذي كرس حياته لخدمة الدين منذ طفولته إلى أن فارق الحياة فلننظر إلى هذا البيت الرائع :

يقيم إذا ما الليل مد ظلامه على نفسه من شدة الخوف مأتما

فما أجمل هذا الإحساس وذاك الشعور العميق في وجدان الشافعي ولو وقفت مع هذا البيت وتصورت صنيع الإمام في جنح الليل وهو يندب ويصيح متبتلا لله من فرط خوفه طالباً العفو والسماحة من العلي القدير وحق له أن يقول :(١)

إن لله عبادا فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وهو الذي يهون عن النفوس ويعظها بأن تكون أبية لا تخضع إلا لله ولا تطلب الحاجة إلا من فضله الواسع ولذلك يقول :(٢)

لا تحملن لمن يمن من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جنة
منن الرجال على القلو ب أشد من وقع الأسنة

---

(١) الديوان : ١٠١

(٢) الديوان ١٠٦

ففى هذا النص تحس بعظمة النفس المؤمنة التى تكافح وتنافح من أجل الكرامة وعزة النفس ، فينبغى أن يكون المسلم هكذا ليعيش رافع الرأس عالى المقام ، فما أشد وقع منن الرجال على القلوب . أنظر إلى البيت الأخير الذى يصور فيه الإمام المدى المقزع لهذه المنن ، فهى كالرماح تتساقط على القلوب بل أشد من ذلك .

صور من روائع شعره :

يقول الإمام الشافعى - رحمه الله - :(١)

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيباً
يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

فقد حق للشافعى أن يقول الأبيات التى ذكرت فى موضع متقدم ، ولولا الشعر بالعلماء يزرى ، لأن من يأتى بمثل هذه الصور لا يشق له غبار فى مجال الشعر والأدب . لأنك لو أدركت هذا الموقف وشاهدت جوانبه المختلفة لأيقنت بما ذكرت تجاه الأديب الفذ ، فكلما إزداد فى سفاهته وبذاءته إزداد هو حلما وتصفحا ومنة وتلك هى أخلاق المسلمين العارفين . إنه تشبيه رائع بليغ له مكانته الأدبية والبلاغية .

ولننظر إلى هذه الصور اللامعة حيث يقول:(٢)

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب ... من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب

---

(١) الديوان : ٣٣

(٢) » ٣٦

إن رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة ... لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه ... والعود فى أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب هذا عز كالذهب

ومن صوره الشعرية أيضا قوله :(١)

قالوا اشكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
الصمت عن جاهل أو أحمق شرف ... وفيه أيضا لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهى صامدة ... والكلب يخشى لعمرى وهو نباح

وقوله أيضا :(٢)

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر ... والعيش عيشان ذا صفو وذا كدر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قاعه الدرر
وفى السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

فتلك صور ناطقة بما تحويه من معان وما ترمى إليه من غرض ، وما ذاك إلا من القوة الإبداعية الفائقة لدى هذا الإمام الجليل المتصوف العارف بالله تهو فى محيط حبه لله وعلمه بأن الأمور بيده يقول :(٣)

ماشئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم أشأ لم يكن

---

(١) الديوان : ٥١

(٢) الديوان ٦٣

(٣) البداية والنهاية ١٠/٢٤ منشورات مكتبة المعارف ببيروت .

فالإمام الشافعي منّ الله تبارك وتعالى عليه سعة في عقله وقوة في فكره وأمده بالإحساس العميق والشعور النبيل الذي جعله يزهد في دنيا الفناء لأنها زائلة لا محالة ، وعلى الإنسان أن يشمر فيها عن ساعد الجد ويجتهد ليوم العرض على الله .

ولذلك نرى الإمام الشافعي قد شغل نفسه بما ينفعه في دينه ودنياه بانشغاله بالعلوم ومطالعة المسائل الفقهية والدينية .

وسئل إسحاق بن راهويه كيف وضع الشافعي هذه الكتب وكان عمره يسيراً . فقال : جمع الله تعالى عقله لقلة عمره

وقال الجاحظ : نظرت في كتب الشافعي فاذا هو در منظوم لم أر أحسن تأليفاً منه[1] .

رحم الله هذا العالم الجليل والإمام الورع الذي جند نفسه في عمل الصالحات طلباً للمثوبة من الله تعالى ، ونفعنا الله بعلمه وسلوكه والله هو الهادي إلى الرشاد .

د / تمساح علي أحمد نحيلة

مدرس الادب والنقد

---

(١) تهذيب التهذيب ٢٩/٩ دائرة المعارف النظامية .